متابعات نقدية

لرسالة كريستوف لوكسنبرغ ومنهجه

محمد حسن زراقط

لا يسع المطلع على هذه المطالعة في كتاب الباحث الألماني كريستوف لوكسنبرغ إلا أن يرى في هذا العمل جهداً بحثياً يستحق التأمل والمراجعة سواء اتفق القارئ مع نتائج بحثه أم لم يتفق. ولا بد من الإشارة بادئ ذي بدء أن الحكم المنهجي الحاسم على صحة النتائج التي توصل إليها الباحث أو عدم صحتها مرهون بالرجوع إلى الكتاب بأجمعه وهذا أمر غير ميسور لي في الوقت الراهن؛ وربما يتسنى للباحثين العارفين باللغة الألمانية أن يراجعوا الكتاب ويبدوا رأيهم فيه بالرد أو التأييد. وما أود فعله في هذا التعقيب هو الإشارة إلى بعض الملاحظات التي تبدو على ضوء هذا العرض للكتاب الذي أفترض أنها موفقة إلى حد كبير في عرض منهج الكاتب وأهم النماذج التطبيقية التي وردت عنده؛ ويؤيد هذا الافتراض اطلاعي على مطالعة أخرى للكتاب أعدها باحثان من جامعة القديس توما–فرع اللاهوت في جامعة مينسوتا الأمريكية هما روبرت ر. فينكس وكورنيليا ب. هورن، وسوف اعتمد هذين العملين مدخلاً لملاحظاتي على الكتاب إلى أن يترجم إلى اللغة العربية أو يتيسر لي الاطلاع عليه مترجماً إلى لغة أخرى أعرفها.

قصة الكتاب:

طبع كتاب كريستوف لوكسنبرغ بالألمانية في برلين عام ٢٠٠٠م، وتحديداً بحسب مقدمة المؤلّف في شهر آذار، ويبدو أن الكتاب لم يجد له صدى في الأوساط الإسلامية إلى أن نشرت مجلة نيوزويك News Week مقالة حول الكتاب وفكرته الرئيسية معتبرة أن اسم الكاتب اسم مستعار وليس اسماً حقيقياً. وقد حاول الكاتب في مقالته المختصرة هذه أن يستخدم فكرة لوكسنبرغ استخداماً سياسياً. وذلك أن من النتائج التي يفترض لوكسنبرغ أن البحث اللغوي أوصله إليها هو تفسيره لحديث القرآن عن الحور العين في الجنة ووصفه لهن بأنهن «كواعب أترابا»، هو أن المراد من هذا الوصف هو الفواكه الملأى بالعصير. وبناء على هذا سوف يشعر منفذو عملية ١١ أيلول بالغبن والغرر(١).

ويشير كاتب نيوزويك إلى أن لوكسنبرغ يدعي أن اللغة العربية لم تدخل في عداد اللغات المكتوبة إلا بعد مائة وخمسين عاماً من وفاة النبي(ص) ومن هنا حاول بعض الكتاب الرد على هذه الفكرة، بوجود نصوص مكتوبة زمن الجاهلية كالمعلقات السبعة وبعض كتب النبي ورسائله المحفوظة حتى الآن في المتاحف العالمية(٢).

ولكن بالرجوع إلى ما ورد في ما قدمه الدكتور رالف غضبان في مطالعته حول رسالة لوكسنبرغ نجد أن دعواه محصورة في كون القرآن هو أول كتاب دون باللغة العربية مستدلاً على ذلك بعدم وجود أي أثر لمخطوط عربي سابق ما خلا بعض النقوش النبطية القريبة من العربية. وعلى أي حال سوف نعود إلى هذه الفكرة لاحقاً.

الروابط والعلاقات بين العربية والسريانية:

يختلف علماء اللغة في تقسيمهم للغات إلى مجموعات فمنهم من يقسمها إلى فصيلتين هما:

أ- اللغات الهندو أوروبية.

ب- اللغات الحامية السامية.

وتعتمد هذه الطريقة في التقسيم على القرابة بين اللغات وذلك على أساس التشابه في الكلمات وقواعد البنية والتراكيب.

وتوجد أخرى تعتمد في تقسيم اللغة على أساس تطور اللغة وارتقائها وأشهر نظرية في هذا المجال نظرية شليجل في تقسيمه للغات إلى ثلاث مجموعات، هي:

أ- اللغات التحليلية.

ب- اللغات الإلصاقية.

ج- اللغات العازلة.

ويرجح بعض الباحثين التقسيم الأول على الثاني لأسس واعتبارات لا مجال للدخول فيها والتعرض لتفاصيلها(٣).

وإذا اعتمدنا الطريقة الأولى لتقسيم اللغات فإننا نرى أن اللغة العربية تقع ضمن إطار اللغات السامية، وهي واللغة الآرامية متفرعتان من أصل واحد وهذا يبرر وجوهاً عدة من التشابه بين اللغتين في المفردات والبنى النحوية والصرفية. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه لماذا نفترض أن العربية هي التي تشارك السريانية أو الآرامية في مفرداتها بحيث نعيد بعض الكلمات العربية إلى أصول آرامية؟ وذلك أن المتتبع لشجرة اللغات السامية يلاحظ أن اللغات السامية تتفرع إلى فرعين: شرقية وغربية، والغربية تتفرع: إلى شمالية وجنوبية، ومن الشمالية تتفرع الآرامية ومن الجنوبية تشتق العربية فليست الآرامية أصلاً للعربية، بل هما تتفرعان من أصل واحد. بل قد يمكن دعوى العكس وهو أن اللغة السريانية هي التي تأثرت بالعربية واستفادت منها بحيث ينبغي إعادة بعض الكلمات السريانية إلى أصولها العربية لمعرفة كيفية تطور دلالتها وبنيتها. ومن الواضح أنه ليس من السهل إثبات هذه الدعوى؛ لأن لهذا الأمر أدواته وطرائقه الخاصة التي لا أدعي امتلاكها ولو كنت أمتلكها لما أمكن ذلك في هذه العجالة. وإنما الذي دعاني إلى إثارة هذا الاحتمال هو أن اللغة العربية أثرت في كثير من اللغات أشير إلى التركية والفارسية منها مع أنهما لا تشتركان مع اللغة العربية في مجموعة واحدة، ولكن حصل التأثر نتيجة التفاعل الحضاري ودخول أهل هاتين اللغتين في الإسلام.

إذاً، ما لم يحسم أمر أولوية أي من اللغتين على الأخرى سوف يفقد مشروع لوكسنبرغ مبرراته المنهجية.

ثمة نقطة أود الإشارة إليها وهي أن التشابه في بعض المفردات بين لغتين أمر مضلل في كثير من الأحيان فربما تكون مجموعة من الأصوات في لغة ما تدل على معنى وفي لغة أخرى تدل على معنى آخر لا ربط بالأول أبداً.

وأخيراً أعتقد بأن هذا العمل الذي قام به لوكسنبرغ، في بعض تفاصيله على الأقل، يبدو مشروعاً ومقبولاً من الناحية المنهجية لو كان يتم مع نص ميت وجد في جوف الأرض أو اكتشف في كهف عن طريق الصدفة وأما نص حي كالقرآن عايشه الناس يومياً في كثير من شؤون حياتهم الدنيوية والعبادية واعتبروه مصدراً من أهم مصادر معارفهم، حتى لقد ادعى بعضهم مغرقاً في المبالغة أن لو أن أحداً من الناس ضل بعيره لعرف مكانه بواسطة القرآن[٤] وقرأوه علاجاً لأوجاعهم وآلامهم وعلى موتاهم وفي مساجدهم، هذا الاهتمام بالقرآن إن لم نقل إنه يمثل ضمانة لعدم التحريف، وهو كذلك إلى حد كبير، فإنه ولاشك ضمانة تمنع من الخطأ في قراءته وبخاصة إذا لاحظنا أمرين:

الأول: إن القرآن كان الكتاب الدراسي الأول لكل من يريد تعلم القراءة من أولاد المسلمين، وبين الأحياء إلى عصرنا هذا من درس في الكتاتيب.

الثاني: ضبط الاختلاف في القراءات فإن بعض القراءات وصفت بالشاذة. ومع ذلك احتفظ بها التراث الإسلامي فلماذا لم يحتفظ هذا التراث بقراءة «لوكسنبرغ» منضمة إلى قراءات أخرى؟!

ثم إنَّ التراث الإسلامي تقبل وجود بعض الكلمات غير العربية في القرآن الكريم فذكر بعضهم أن في القرآن مفردات من لغات شتّى هي: الأحباش، والفرس، والروم، والقبط، والأنباط، والسريان، والعبرانيين، والبربر[٥]. وورد ﴿**يؤتكم كفلين من رحمته**﴾ أجرين بلغة الحبشة و «طه» يا رجل بالحبشية أيضاً. والقسطاس هو العدل بالرومية وهكذا[٦]... حتى لقد قيل: «إن في القرآن من كل لسان»[٧]. فهل يسوِّغ لنا المنهج العلمي البحث عن أصول من هذه اللغات كلها لإرجاع عدد من آيات القرآن إلى أصولها كما يحاول لوكسنبرغ فعله مع السريانية؟!

كتابة القرآن وتدوينه:

لقد استحوذ البحث عن تدوين القرآن على اهتمام الباحثين من مسلمين وغير مسلمين حتى ليمكن القول: إن تدوين القرآن يعد من أهم الأمور الجديرة بالبحث في مجال تاريخ القرآن. وقبل عرض شيء من الآراء المطروحة في هذا المجال أود الإشارة إلى شيء من تاريخ الخط العربي؛ حيث إن هذا الخط بدأ بشكل ثم تطوّر إلى أن أصبح فناً له قواعده وأصوله وبرع فيه خطاطون أتحفوا الفن العالمي بأروع اللوحات جمالاً ودقّة،وكأن الفنان المسلم الذي منعه الدين أو المجتمع من إظهار إبداعه في مجالات أخرى من الفن كالرسم والنحت وجد في الخط المجال الأبرز المتاح للكشف عن طاقاته الإبداعية.

وعلى أي حال يذكر مؤرخو الخط العربي أن العرب كانوا يكتبون بخط سموه بالخط الكوفي أخذوه عن السريان وبهذا الخط دونوا المصحف وكان لهم إلى جانبه خط آخر سموه بالنبطي كانوا يستخدمونه لأمور أخرى[٨]، وقد كانت الأمية منتشرة بين العرب في تلك الفترة حتى أنهم كانوا يعدون الكتاب على أصابع اليد قبل مجيء الإسلام وكان

النبي(ص) أهم داعية لترويج الكتابة ونشرها بين المسلمين في المدينة، وذلك أنه أُسِر في غزوة بدر سبعون رجلاً عرض على الكتاب منهم افتداء أنفسهم بتعليم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وهكذا بدأت الكتابة بالانتشار بين المسلمين. وقد حفظ التاريخ عدداً من المشاهد التي شهد النبي(ص) فيها كتابة بعض النصوص ككتبه التي أرسلها إلى ملوك عصره، والمعاهدة التي عقدت بينه وبين قريش قبل فتح مكة، والوثيقة الرائعة التي تمثل توافقاً بين اليهود والمسلمين في المدينة، كل هذه الوقائع تمثل شواهد لا يرقى إليها عن وجود الكتابة بين العرب لا أن اللغة العربية دوِّنت بعد مائة وخمسين عاماً من وفاة النبي(ص)[٩]. ويضاف إلى ذلك أن التراث الإسلامي أطلق عنوان كتاب الوحي على عدد من الأشخاص، وتذكر الرواية وجود نسخ من القرآن كانت الأصل في تدوين عثمان للمصحف الذي نشره. وما تزال نماذج عدة منسوبة إلى أصحاب النبي(ص) منتشرة في متاحف العالم الإسلامي وغير الإسلامي.

مع كل هذا لا يمكن الحديث عن تأخر تدوين اللغة العربية ولا عن تأخر تدوين القرآن وجمعه في كتاب واحد إلى زمن متأخر عن وفاة النبي(ص)، نعم لقد تأخر تنقيط الحروف ووضع حركات الإعراب عليها ولم يتفق المؤرخون على تحديد زمني دقيق لهذا الأمر ويرجح بعض الباحثين أن الإعراب قد وضع بأمر من زياد بن سمية على يد أبي الأسود الدوؤلي وأن الإعجام أي وضع النقاط على الحروف تأخر إلى زمن عبد الملك بن مروان (حكم من ٦٨٥إلى ٧٠٥)

وقد أدى عدم وجود التشكيل الإعرابي في النص القرآني إلى الاختلاف في قراءة بعض الآيات إلا أن ذلك مضبوط في كتب التفسير وكتب القراءات وأذكر لذلك بعض النماذج من هذه الاختلافات:

أ- قرأ أبو جعفر وابن عامر: ﴿**إذ قال يوسف لأبيه يا أبتَ**﴾ بفتح التاء... وقرأ الباقون يا أبتِ بكسر التاء[١٠].

ب- قرأ عاصم، على رواية ﴿**ما بال النُّسوة**﴾ بضم النون وقرأ الباقون ﴿**ما بال النِّسوة**﴾ **بكسرها**[١١].

ج- قرأ ابن كثير وحده: ﴿**كذلك يُوحَى إليك**﴾ بفتح الحاء. وقرأ الباقون بكسرها[١٢].

د- قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف ﴿**ويعلم ما تفعلون**﴾[١٣]، وقرأ الباقون ﴿**يفعلون**﴾ بالياء. إلى غير ذلك من النماذج التي سطرها أهل الاختصاص في كتبهم[١٤].

ملاحظات تطبيقية:

قبل الوقوف عند بعض النماذج التي اختارها الدكتور رالف غضبان من رسالة لوكسنبرغ أشير إلى أن الشرط الضروري الذي ارتضاه لوكسنبرغ لتطبيق منهجه هو عدم إمكانية الوقوف على معنى منطقي مقبول للآية وإلا فلا يمكن ترك المعنى الذي يؤديه الفظ العربي والبحث عن احتمالات أخرى يؤديها إرجاع الألفاظ العربية إلى أصول سريانية.

النموذج الأول

﴿**واستفزز من استطعت.... غرورا**﴾[١٥].

عند حديثه عن هذه الآية يدعي لوكسنبرغ

أن التفسير الموروث لها ليس منطقياً وذلك لأن الطبري وهو النموذج الذي يدخله لوكسنبرغ في أولوياته يفسر الاستفزاز بالإفزاع مع أن هذا المفهوم يُناقض المفهوم القرآني القائل بأن إبليس يوسوس في صدور الناس. ثم يقارن هذا المعنى بما يذكره لسان العرب ويرى لوكسنبرغ أنه الأصح(١٦). ولكن بالرجوع إلى تفسير الطبري نجد أنه لا يفسر الاستفزاز بما ذكر بل يقول: «يقول تعالى ذكره واستفزز واستخفف واستجهل من قولهم استفز فلاناً كذا وكذا فهو يستفزه....»(١٧).

وهو في هذا يلتقي مع ما يذكره ابن منظور تماماً فالاستخفاف والاستجهال والختل من عالم واحد أو أحدهما مقدمة للآخر.

وأما حول الإجلاب عليهم لتخويفهم فلا عين ولا أثر للتخويف في تفسير الطبري أيضاً ومن شاء فليراجع، وأما مشكلة المشاركة في الأولاد وهي الأساس أو المدخل الذي يدلف منه لوكسنبرغ إلى «سرينة» القرآن، فلا أظن أنه يتم له ذلك إذا استطعنا أن نقدم معنى منطقياً للآية نجده في كثير من التفاسير المطروحة، ضمنياً أو صراحة، وذلك أنني أرى أن الآية تؤدي هذا المعنى دون أي تكلف: إن الناس في علاقتها مع (إبليس) واستجابتها له على صنفين: منهم من يكفيه الصوت والنداء فهذا استفزه بندائك إياه ودعائك له، والصنف الآخر لا يميل إليك إلا بصعوبة فهذا استعن عليه بالخيل والرجالة (وفي هذا كناية عن الجند والأعوان) وأما المشاركة في الأموال والأولاد فهي ثمرة عملك الذي تقوم به أي أن من يطيعك ويميل إليك سوف يخدمك بتقديم أمواله وأولاده لك أو أنعامه وأولاد أنعامه(١٨).

وبناء على هذا لسنا مضطرين بل ولا يجوز لنا منهجياً أن نبدل كلمة «أجلب» إلى «أخلب» ولا «شاركهم» إلى «أشركهم».

النموذج الثاني:

قوله تعالى: ﴿**فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً**﴾ بغض النظر عن الأصل الفيلولوجي لكلمة تحت إلا أنها عربية قديمة لا يختلف معناها عما ذكر لوكسنبرغ لها من أصل سرياني فالمعنى متقارب وهو أنه ناداها من أسفل منها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك (أسفل منك) جدولا من الماء فكلي واشربي وقري عيناً. وهذا المعنى لكلمة «سري» هو الذي رجحه بعض المفسرين لانسجامه مع السياق باعتبار الأمر بالأكل والشرب(١٩).

والمعنى الثاني المتصور لكلمة سري هو الشريف والرفيع ويكون المراد بناء عليه أن الملك جبرائيل، على قول، أو عيسى نفسه، على قول آخر قد سلاها وشد من عزيمتها بقوله لها لا تحزني قد جعل ربك أسفل منك أو ما نزل منك، بناء على مقولة لوكسنبرغ، شريفاً رفيعاً وليس إنساناً يُسْتَحَى به أو يُطْلَب الموت والدخول في ساحة النسيان من أجله. وأما ربط كلمة سري بشرعي فلا ضرورة لها إلا على مستوى التحليل الفيلولوجي للكلمة لمعرفة أصولها أو مشاركاتها في الأصول والجذور الصوتية ولا يؤشر ذلك إلى أصل سرياني للنص القرآني المقدس، وإن قبلناه فإنه يؤشر إلى إشتراك في بعض الأصول بين اللغتين العربية والسريانية.

توصية ختامية:

أكتفي بهذه الملاحظات ولا أستعرض كل النماذج؛ لأنه لا خصوصية لهذه النماذج التي ذكرت في هذا الغرض بل لا بد من ملاحظة كل الموارد التي أشار إليها لوكسنبرغ نفسه في كتابه وهذا ما لا يتيسر لي في الوقت الراهن كما أشرت سابقاً مضافاً إلى أنه يتوقف على معرفة باللغة السريانية ما يعقد الموقف أكثر. وأُطلق الدعوة إلى الباحثين المتقنين للغتين إلى متابعة ما عبرت عنه رسالة لوكسنبرغ، وإن لم يكن بين المسلمين من يملك هذه الأدوات فتكون ثغرة لا بد من سدها والعمل على تلافيها.

وأختم بالقول إنني في غاية العجب والحسرة عندما حاولت البحث على شبكة الأنترنت للإطلاع على ما كُتِب حول الكتاب والكاتب بالإنكليزية وجدت ما يربو على مائتي مورد مرشحة للزيادة لو تابعت ذلك، بينما لم أجد باللغة إلا موقعاً واحداً أشار إليه في صفحتين من صفحاته، والأنكى من ذلك أنني بحثت بين المراكز الإسلامية لأحصل على نسخة من مجلة نيوزويك فلم أعثر عليها ولا أدري إما أنها غير موجودة أو أنني لم أصل إليها رغم وجودها وهذا يجعلني أدعو إلى تأسيس مركز للدراسات الإسلامية يتابع كل ما يصدر عن الإسلام والمسلمين في الغرب أو الشرق، ليكون لنا صوت بين الأصوات ولكي لا نكون آخر من يعلم في كثير من الأمور.

الهوامش

(١) مجلة نيوزويك، ٢٨ تموز ٢٠٠٣.

(٢) أنظر موقع www.iviewes.com/articles.

(٣) أنظر: صبحي الصالح، **دراسات في فقه اللغة**، ط١٣، بيروت دار العلم للملايين، ١٩٩٧، ص ٤١-٤٦. وقارن بموسوعة Encarta الإلكترونية مادة Language classification، وكذلك: علي عبد الواحد وافي، **فقه اللغة**، ط٤، القاهرة ١٩٥٦، ص ١٠٨.

(٤) الآلوسي، **روح المعاني**، ج ، ص ٢٠٩.

(٥) الشيخ محمد هادي معرفت، **تلخيص التمهيد في علوم القرآن**، قم، جامعة المدرسين، ج٥، ص١١٢.

(٦) ابن أبي شيبة الكوفي، المصنف، ج٧، ص ١٥٩.

(٧) أنظر د. صبحي الصالح، م.س.، ص ٣١٦.

(٨) أنظر أبي عبد الله الزنجاني، **تاريخ القرآن**، طهران، منظمة الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤، ص٢٩ وما بعدها، وقارن بـ:

(٩) كما يدّعي كاتب نيوزويك ولا أدري إن كان لوكسنبرغ يتبنى هذا الأمر أم لا.

(١٠) سورة يوسف: الآية ٤.

(١١) سورة يوسف: الآية ٥٠.

(١٢) سورة الشورى: الآية ٣.

(١٣) سورة الشورى: الآية ٢٥.

(١٤) أنظر للمزيد من التفاصيل عن هذه النماذج: أحمد بن الحسين الأصبهاني، **المبسوط في القراءات العشر**، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١٥) سورة الإسراء: الآية ٦٤.

(١٦) راجع المقالة الأصلية.

(١٧) ابن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج١٥، ص١٤٧.

(١٨) بناء على فهم أن المراد من المشاركة في الأموال هي وقف بعض الحيوانات أو تقديمها قرابين للآلهة والأصنام. لمعرفة تفصيل ذلك راجع تفسير الطبري، ج١٥، ص١٤٩.

(١٩) السيد محمد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، ج١٤، ص ٤٣.